ومع ذلك فقد بدا للرواد أن تحقيق المجتمع لغاياته المحدودة ـ إن كانت هذه الغايات واضحة ـ يحتاج إلى تربية خاصة مختلفة عن التربية التقليدية . وهذه التربية باختصار هى تربية الفن ، وتربية البحث عن السرور المتميز من الغايات العملية والمنفعة . لكى يحقق المجتمع تصور أهداف « محدودة » عليه أن يعنى بذلك السرور غير المتحيز ، عليه أن يعنى بما يسمى فى المصطلح الأوروبى باسم التجربة لذات التجربة . وربما كان الاستعمال المبكر للفظ التجربة بمعناها الاصطلاحى فى دوائر البحث الأدبى فى اللغة العربية علامة من علامات الثورة على البلاغة . ومن الجدير بالذكر أن هذه الكلمة كانت فى معظم استعمالاتها تدور حول المحاولة والكسب وحسن التأتى والبراعة فى الأداء . وما كانت تستعمل فى ذلك المعنى الذى يتصل بالخواطر والأحاسيس التى يمارسها المتأمل راضياً عنها مشغولاً بها دون نظر إلى ما تحققه وما لا تحققه فى دنيا الكسب والبراعة والتأتى . لنقل إذن إن النظرة إلى البلاغة فى طورين اثنين من أطوارها يمكن أن يرمز إليها بما كان لكلمة التجربة من معنى عملى ، وما أريد لها من معنى وجدانى روحى أجل من العمل أو ليس بينه وبين العمل نسب مباشر واضح .

لقد أراد الثائرون على البلاغة أن يكون المواطن « الكفء » ـ إذا رضيت عن هذا اللفظ ـ شاعراً إلى حد ما . والغريب أن هذه النظرة موجودة فى بعض تراثنا الواسع الذى لا يقرأ الآن كثيراً ـ لكن يبدو أن الإطار العام للدراسة فى بعض المراحل ـ على الأقل ـ لم يكن من همه إذكاء روح الشاعرية ، فضلا على أن كل شىء فى الثقافة الأدبية الوافدة كان يدور حول الحاجة الأساسية إلى الجميل بجانب حاجة الإنسان إلى تمييز الخير والصواب . وقد بدا لبعض الدارسين المحدثين أن ثقافتنا التقليدية لم تكن تحسن التمييز بين الجميل من ناحية والصواب والخير من ناحية ، وكانوا يرون أن اللغة فى أيدى البلاغة تخدم مقاصد معينة مختلطة .

ومهما يكن فقد ادعى الثائرون أن البلاغة العربية لا تهتم بروح الإنسان أو متعته المتسامية على النجاح ، ولا تهتم بالبحث عن الفن المتميز من البلاغة . والحقيقة أن فكرة الروح الإنسانية شغلت هؤلاء الرواد ، وتجلت فى مظاهر كثيرة من بينها ماكان يقوله الأستاذ أمين الخولى فى كتابه فن القول إن مدار البلاغة هو يقظة القارىء الوجدانية ، ومن بينها ما أشاعه هؤلاء الباحثون من العناية بفكرة البهجة بالحياة . هذه البهجة التى كانت ـ عندهم ـ قرينة حلم الميلاد الجديد . وكان من الطبيعى عند هؤلاء